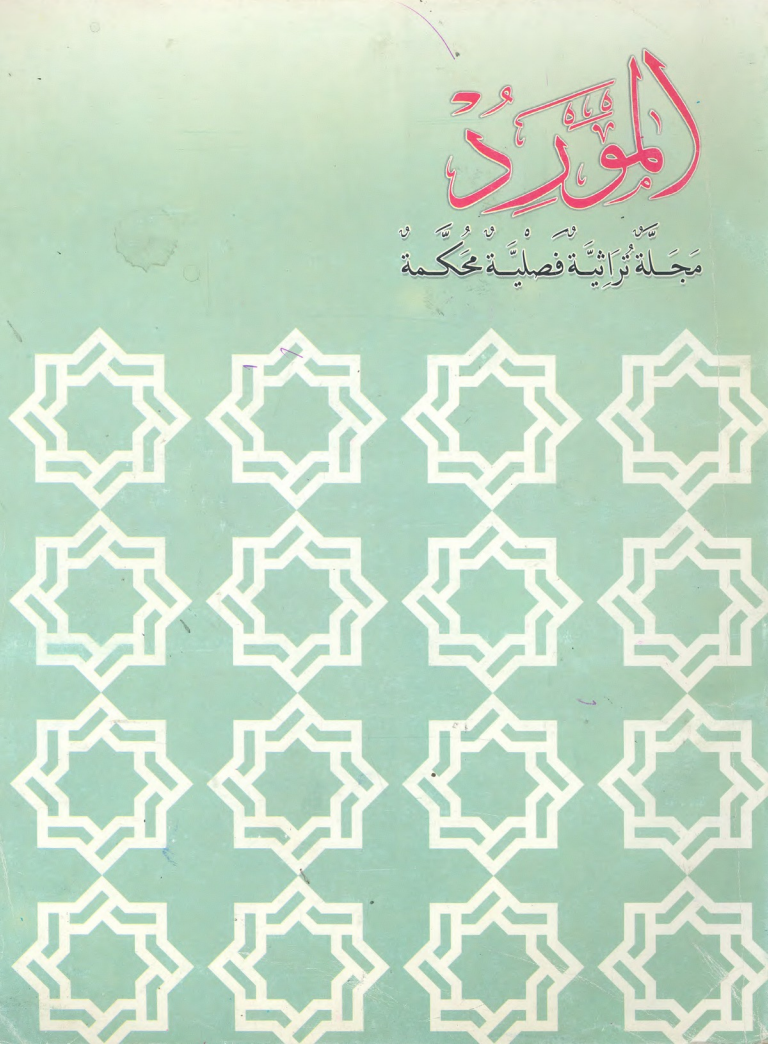
المورد
مجلة تراثية فصلية محكمة

# المكتبات العربية العامة والخاصة في العراق

بقلم الاستاذ

فؤاد يوسف قزانجي

المعيد في كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ليس غريبا ان يكون العرب ـ هذا الشعب القبلي الذي ألف سكنى الصحراء ـ بعد قرن من مجيء النبي محمد (ص) (٥٧١-٦٣٢) ، صاحب ثقافة متطورة ، وحضارة مزدهرة وعدد لا يحصى من المكتبات الخاصة والعامة . وكما جاء في سورة القلم أولى سور القرآن الكريم « ... اقرأ باسم ربك الذي خلق .. » فقد طلب النبي محمد (ص) من كل من يأسره المسلمون في حروبهم ان يعلم ستة او اكثر من المسلمين ، اذا ما اراد ان يطلق سراحه . وقد وضع ثاني الخلفاء الراشدين عمر أولى السجلات المكتوبة لجند الاسلام وشجع على القراءة والتعليم وجمع الكتب والاطلاع على ثقافات الشعوب الاخرى لذلك من الصعب تصديق الرواية القائلة بان الخليفة عمر قد أمر جنده بعد فتح مصر بحرق محتويات مكتبة الاسكندرية وذلك لان المؤرخ العربي الذى ذكر هذه الرواية عاش في فترة تقع بعد ستة قرون من تلك الواقعة . كما ان الخليفة نفسه قد أمر جنده بعد فتح القدس ان لا يتدخلوا في الامور الدينية الخاصة بالمسيحيين واليهود ، الذين كانوا يتمتعون بكامل حريتهم في اماكنهم المقدسة والتى شملت بدون شك الكثير من مكتبات المعابد والاديرة . اما في عهد الخليفة علي بن ابي طالب وحينما اندلعت الحرب الاهلية فقد قام اتباع أمير الشام معاوية بوضع المئات بل الالوف من نسخ القرآن الكريم على رؤوس حرابهم طلبا للصلح مع الخليفة علي ، مما يدل على انتشار الكتابة والعناية بالخط العربى . كما أن علياً نفسه كان واسع العلم وخطيبا بارعا .

واستطاع العرب بعد ذلك ان يوحدوا تحت لواء الاسلام والقرآن واللغة العربية بينهم وبين اقوام اخرى مثل الفرس والاتراك والسريانيين في سوريا والهنود وحتى الاوربيين . وكانت عقلياتهم جديدة قادرة على التفاعل مع حضارات اخرى ، خاصة تلك التى واجهتهم خلال فتوحاتهم في آسيا وشمال افريقيا واسبانيا ، وقد استطاعوا بعد ذلك أن يصوغوا تلك الثقافات في قالب عربى اسلامى معتمدين على ذكائهم ونزوعهم لحب الاستطلاع . وبهذا تمكنوا من بناء دولة ذات معاهد ثقافية متطورة بدلا من حياة البداوة والقبلية . واهتم العرب بجمع الكتب وخاصة النسخ العديدة للقرآن الكريم وشروح السنة وذلك لتكون وسيلة لاجادة العلوم القرآنية ودراسة المنطق وللمحافظة على تلك الكتب الثمينة بشعور من الزهو والفخر . ولا يعنى ذلك ان مجاميع الكتب الخاصة في العصر الاموي (٦٦١-٧٥٠م) بالعراق لم تكن تحتوى على مجموعات اخرى لكتب الفلسفة

اليونانية والرياضيات وعلم التنجيم والفلك والحكمة الهندية والادب الفارسي • ولم تكن فكرة المكتبة العامة عند العرب مجرد مخازن لحفظ الكتب فقط بل كانت مركزا للثقافة والبحث امتزجت مع الآداب الاجنبية وتطورت الى مراكز ذات شخصية مستقلة[1]• وكان العراقيون في تلك الفترة قد بدأوا بجمع المخطوطات التى غالبا ما احتوت على شروح السنة الاسلامية ودواوين الشعر وأصول القبائل العربية بالاضافة الى النسخ المذهبة العديدة للقرآن والتى حفظ العديد منها في مدن البصرة والموصل والكوفة •

ولم يكن صدفة بناء مدينة بابل من قبل البابليين في المكان الذي تم فيه بعد ذلك تأسيس مدينة بغداد عند بقعة تبعد تسعين كيلومترا فقط شمال بابل وذلك على يد الخليفة أبي جعفر المنصور عام ٦٧٢م بعد أن وجد انها ذات مناخ لطيف وتربة خصبة بالاضافة الى أنها مركز استراتيجي لا يحميها نهرا دجلة والفرات وحسب بل انها تقع في منتصف الطرق البرية الى الشام وبلاد العجم والجزيرة العربية • واصبحت بغداد[2] عندئذ عاصمة الامبراطورية الاسلامية العربية لخمسة قرون متوالية • وكانت بغداد ـ مدينة الف ليلة وليلة ـ مركز الحضارات الانسانية العظيمة بلا منازع تليها في الاهمية مدينة قرطبة في الاندلس •

ولا يستبعد وجود مكتبات دينية لمساجد الكوفة والبصرة والموصل بالنظر لندرة المعلومات حول تلك المكتبات قبل عام ٧٦٢م • وفي الكوفة وجدت في مسجدها الكبير خزانة للكتب احتوت على نسخ عديدة للقرآن والسيرة النبوية كمخطوطات كتبت على اصول السعف والرق قبل استعمال الورق اذ ان صناعته بدأت في بغداد عام ٧٩٣م• وقد طور الكوفيون انواعا من الخطوط العربية الجميلة واشهرها الخط الكوفي الجميل الذى استعمل في استنساخ المخطوطات وتذهيب اغلفتها والكتابة على هوامش الصفحات ، اضافة الى خطوط اخرى مثل النسخي والفارسي وغيرها وذلك خلال العصر العباسي الاول وقد استعمل الخط الكوفي من قبل الاوربيين ايضا خاصة في تزيين الصور وحواشيها كتلك التى رسمت على جدار كنيسة بالرمو وكنقش الغطاء القماشي ليوم تتويج الملك روجر الثانى •

اما بغداد في خلال القرن التاسع فقد احتوت على ست وثلاثين مكتبة فيما عدا مدن الكوفة والموصل والبصرة التى احتوت على عدد كبير من المكتبات منها العامة والمدرسية والدينية والخاصة • وكانت بغداد مثالا يحتذى من حيث مدارسها وخزاناتها في كل العصور الاسلامية ، حتى قيل أن أكثر من مائة دار للكتب قد ضمتها بغداد عام ٨٩١م، اما في مجدها الثقافي فقد احتوت على ثلاثين مكتبة عامة[3] وعند انتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد ارتحل كثير من العلماء والمترجمين اليها للمساهمة في مراكز الثقافة ودور العلم التى اخذت تزدهر فتنمو معها خزاناتها العامة عاما بعد عام وكان لتنافس الامراء والوزراء فيما بينهم للحصول على النسخ الاولى من المخطوطات الثمينة اثر كبير في عضد التأليف ونمو المكتبات[4] •

---

(١) Mackenson, Ruth S. **Background of the History of Moslem Libraries.** American Journal of Semitic Languages and Literatures. LI (1934—35) 114—125; LII (1935—36), 22—33 104—110 (LI—P. 115).

(٢) من الجدير بالذكر ، انه اعتقد الى عهد قريب ان بغداد ، قبل تأسيسها من قبل المنصور كانت قرية فارسية صغيرة معناها (عطاء الله). ولكن تبين اخيرا من خلال احدى الوثائق القانونية لحمورابي ان هنالك مدينة قديمة في العراق كانت تدعى بكدادو او بغدادو . هذا اضافة الى وثائق قديمة اخرى ذكرت ايضا اسم هذه المدينة ، انظر :
**Encyclopedia of Islam.** Vol. I. Baghdad

(٣) Johnson, Elmer. **A History of Libraries in the Western World.** N.Y. Scarecrow, 1965, 418 P. (P. 89).

(٤) Gibb, Sir Hamilton. **Arabic Literature, an Introduction.** 2nd. ed. London, Univ. Press, 1963. 182 P. (P. 87).

وقد اطلق العرب على المكتبة اسما هو دار الكتب أو خزانة الكتب واعتادوا أن يلحقوها غالبا ، بالقصر أو بمعهد أو بمركز ثقافي أو بمسجد أو بمدرسة ، لتجود بكل ما ينفع القارىء والباحث على الرغم من ان قسما قليلا فقط يمكن ان نطلق عليه مكتبات عامة بالمفهوم الحديث • اما رواد المكتبات فكانوا من العلماء والكتاب والشعراء والقضاة• وقل ان نجد من يهتم منهم بقراءة كتب التسلية والامتاع بل أن طابع البحث والجدية كان يطغى على المطالعة • وقد أعدت بعض المكتبات معاهد تعليمية بحتة مفتوحة للجمهور • اما المصلون فيالمساجد فقد اتيح لهم ان يستفيدوا من مجاميع الكتب الموجودة مقابل ايداع شيء ثمين كخاتم ذهبي مثلا ، للاستفادة من تلك الكتب ، كما انه من الصعب اعارة المخطوط لشخص ما الا اذا كان معروفا لدى خازن الكتب ، أو انه قدم بصحبة شخص معروف لديه • وقليل هي المكتبات التي لم تسمح للقارىء بالتجول فيها للاطلاع أو لاختيار المخطوطة التي يرغب في استعارتها •

اما المكتبات العامة الكبيرة فتفتح ابوابها للجميع بدون تمييز ، وتذكر بعض المصادر بهذا الشأن ان المجال كان مفتوحا لجميع الناس على السواء للتفرج على الكتب أو استعارتها • ورغم حرص القيمين على المكتبات في الاحتفاظ بمجموعاتهم كاملة ، الا ان اكثر الكتب المعارة لم تجد طريقها ثانية الى المكتبة • ان كلمات خازن احدى الرباطات الحلبية في هذا الخصوص ، اشبه ما تكون بصرخة من الاعماق لضياع الكتب المعارة فهو يقول : « لا تعر كتابا ، انما قدم عذرا لذلك ، واكذب من اجله فان ذلك هو سبيل التصرف الحكيم في مثل هذه الاحوال ، واذا لم تتعظ بكلماتي فأنك ولا ريب ستفقد ذلك الكتاب الى الابد » وكلمات اخرى قاسية لابن الصارم (المتوفي سنة ١٥٥٦) فهو يقول : « ان كل من يستعير كتابا مني ولا يعيده الي انما هو عمل غير نبيل ، بل وان صاحبه لتافه وخائن »[٥] وكان الاهتمام بالكتب لا ينصب على الخازن وحده بل يتعداه الى الخلفاء والوزراء والامراء من ذلك ما رواه ابن الفوطى ، خازن المدرسة المستنصرية عن اهتمام الخليفة المستنصر بالله في رعاية خزانتها الضخمة التى اشرف بنفسه على نقلها وتنظيمها ، فهو يقول : « انه شاهد ختم الخزانة متغيرا والقفل بحاله ، فاعتبروا ما فيها من الرهون والعين ، فشذ منها شيء ، وفي المال ثلثمائة دينار ، فأنهى ذلك الى الخليفة فأمر بالزام الفقهاء والحاشية برمي تراب[٦] ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلم يجدوا شيئا ، فتقدم بتقسيط ذلك على البواب بالخزانة والفراشين على قدر احوالهم فاستوفى ذلك منهم ورتب عوضهم »[٧] •

ان التطور الاساسي الذى اصاب المكتبات العربية العامة يتمثل في اضافة حجرة او قاعة خاصة تلحق بمكان وجود مجاميع الكتب ، ثم بفرشها بالسجاجيد والطنافس والمقاعد الواطئة ، اذ ان عددا كبيرا من رواد المكتبات لم يرتادوها من أجلالحصول على المخطوطات وحسب ، بل لمناقشة بعض الافكار وتبادل وجهات النظر حول نقاط هامة قد قرأوها او يرغبون في الاستزادة منها • وكان خازن المكتبة في أغلب الاحيان يقوم بادارة المناقشة ، أو أن يلزم الصمت لحين مشورته ، حينذاك يقوم الى مجموعته ويبحث فيها عن المخطوطة المراد الرجوع اليها في مثل هذه الاحوال • وكانت مكتبة البصرة العامة خلال القرن الخامس الهجرى ، قد وصفها الحريرى بأنها

---

(٥) Pinto, Olga. **Libraries of Arabs during the time of the Abbasides.** tr. by F. Krenkow. Pakistan Library Review. 11 : 44—72 (M. 1959)

(٦) اي ان السارق منهم يرمي المال المسروق في التراب .

(٧) ابن الفوطي ( البغدادي ) ، كمالالدين ابو الفضل عبدالرزاق . الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . تحقيق محمد رضا الشبيبي ومصطفى جواد . بغداد، المكتبة العربية ، ١٩٣٢ ، ٥١٢ ص (ص٢٢٣) .

عبارة عن منتدى للمثقفين ، ومكان لاجتماع ابناء المدينة والغرباء بل كانت فريدة في بابها بلا ريب نظرا لما تقوم به من خدمات فذة في سبيل البحث لكل طالب معرفة ولما تهيئه من الاساليب التربوية والامتاع من خلال القراءات والمحاضرات والمناقشات التي كانت تدور فيها .

وعندما اسس الخليفة المنصور ( ٧٥٤-٧٧٥ ) مكتبته العامرة والتي كانت ملحقة بقصر الخلافة ، عين فيها عددا من الوراقين وجلب لها مئات المخطوطات في الشعر والنقد والدين والفلسفة والتاريخ . وطلب من المترجمين نقل الفلسفة والطب اليوناني وكذلك الادب الفارسي الى العربية . ويذكر ابن ابي اصيبعة عن يوحنا بن بختيشوع الطبيب المشهور المتوفي سنة ٧٦٩م انه عرف بدقة ترجمته للمؤلفات اليونانية ، كذلك ابن البطريق الذي أمره المنصور ان ينقل الى العربية المؤلفات القديمة[٨] .

وكانت بغداد في أوجها تحفل بالعديد من المكتبات العامة والخاصة . ومن بين تلك الخزائن الحافلة خزانة الوزير أبي المنصور بن فنه التي ضمت تسعة عشر الف مجلد من ضمنها أربعة آلاف ورقة بخط ابن مقلة . وكذلك خزانة أبي الحسن محمد بن هلال الصابي ( وقفها في شهر رجب من سنة ٤٥٢هـ ) التي ضمت أكثر من الف كتاب . اما خزانة الناصر لدين الله العباسي ، فكانت تضم مجموعة ضخمة من الكتب الثمينة . ومن أشهر الخزائن الخاصة خزائن ابن النديم والشريف الرضي والشريف المرتضى وابن الجوزي وعشرات غيرهم من أهل العلم والمعرفة من الشعراء والوزراء والامراء والعلماء[٩] .

وفي زمان الخليفة الرشيد مثلا ، امتلك المؤرخ العربي ابو عبدالله الواقدي (١٣٠-٢٠٧)هـ مجموعة كتب ضخمة في صنوف الآداب والعلوم خلف منها ما يعادل ستمائة قمطر كل قمطر يحمله رجلان . وكان له غلامان يكتبان له فلقد عرف بسعة تآليفه التي تزيد على عشرين كتابا[١٠] .

وكان الخليفة الرشيد نفسه ، اكثر تشجيعا من سلفه لحركة الترجمة واقتناء الكتب والمخطوطات القديمة من جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية ، وقام بالاضافة الى ذلك ، العديد من الفلاسفة والكتاب المسلمين بتعزيز المكتبات بمؤلفاتهم الوفيرة بعد استقرار الاوضاع للحكم العباسي وازدهار الحضارة العربية . وحينما فتح الرشيد بلاد الروم عاد من انقرة وعمورية بانواع الكتب اليونانية وخصوصا الطبية منها ، وعين يوحنا بن ماسويه ، الطبيب المشهور ، امينا للترجمة يعاونه عدد من الكتاب لترجمة هذه الكتب[١١] .

وعلى أثر انتقال صناعة الورق من سمرقند الى بغداد ، اصبح المخطوط اقل كلفة . وبذلك امسى الكتاب اوسع انتشارا بين العامة ، مع هذا فان الكلفة اعتمدت اساسا على دقة وضوح الخط المستعمل في النسخ ونوعيته ، وفيما اذا كان المخطوط مجلدا أو مذهبا . وكان الوراق الكبراوى مثلا قد اشترى ورقا بخمسة دراهم ونسخ أشعار المتنبي في ثلاث ليال ، ثم باع المخطوط منها بمائتي درهم ، والنسخة الاخيرة ( من المحتمل انها اقل دقة ووضوحا ) قد باعها بخمسين درهما . وهناك وراق آخر كالداودى اشترى أربع اوقيات من الحبر بدرهم واحد . اما

---

(٨) عواد ، كوركيس . خزائن الكتب القديمة في العراق ، منذ اقدم العصور حتى عام ١٠٠٠هـ (١٥٩١م) . بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٨ ، ٣٤٦ ص (ص ١٠٥) .

(٩) معروف ، ناجي « الحياة الثقافية في بغداد » بغداد ، عرض تاريخي مصور . باشراف نقابة المهندسين العراقية ، اعداد مصطفى جواد وآخرين . بغداد ، مؤسسة رمزي للطباعة ، ١٩٦٩ (ص١٤٥) .

(١٠) ابن النديم ، ابو الفرج محمد بن اسحاق . كتاب الفهرست . تحقيق كوستاف فلوجل. بيروت . دار الخياط ، ١٩٦٤ ، ٣٩١ ص ( ص ٣٤٣ ) .

(١١) القفطي ، جمال الدين . تاريخ الحكماء . تحقيق جوليوس ليبرت ، ديتريش ـ فرلاكبشهاندلنك ، ١٩٠٣ ( اعادت طبعه مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي ) ص ٣٨٠ .

النساخ يحيى الارزني ، المتوفى سنة ١٠٢٤ فكان لا يقوم من محله حتى يكتب ( الفصيح لثعلب ) ويبيعه بنصف دينار ويشتري نبيذا ولحما وفاكهة لقضاء ليلته[١٢] . اما كلفة المخطوط بأوربا في سنة ١٣٨٠ مثلا فكانت تقدر بخمسين درهما وستة بنسات انكليزية . وهذا يتضمن شراء تسع عشرة قطعة من الرق وحبرا وزادا ( طعام وشراب للناسخ ) لمدة ثمانية عشر اسبوعا وكذلك أجرة تذهيب وتجليد وربط المخطوط . والواضح ان المخطوط في أوربا يكلف اكثر من المخطوط العربي ويستغرق وقتا أطول لاتمامه .

وكان المأمون الذى احاطت به نخبة من الادباء والعلماء قد جمع في خزانته المؤلفات الحديثة لمدرسة الاسكندرية هذا الى اتصاله المباشر مع اباطرة القسطنطينية الذى وفر له الحصول على افضل الكتابات الفلسفية القديمة[١٣] . وقد ارسل المأمون جمعا من اهل المعرفة العاملين في بيت الحكمة من بينهم الخازن سلم والمترجمان المشهوران ابن البطريق وحنين ابن اسحاق للبحث عن المؤلفات اليونانية القديمة وخصوصا تلك التى كتبها ارسطو . وفي القسطنطينية شاهدوا معبدا يونانيا ضخما فطلبوا فتح ابوابه الا ان رجال الدين المسيحيين رفضوا ذلك في بادىء الامر بحجة ان المعهد لم يفتح منذ أن دانت تلك البلاد بالنصرانية ، واخيرا فتحت لهم ابواب المعبد نزولا عند الحاح الزائرين العرب فوجدوا اعدادا ضخمة من المخطوطات المكتوبة على الرق والبردى قدرت بألف عدل بعير فحملوا معهم ما رغبوا من مختلف المصنفات الهامة في الفلسفة والموسيقى والهندسة والحساب والطب[١٤] واذ وصل الركب الى بغداد ، قام جمع من اهل العلم المشتغلين في بيت الحكمة بترجمتها وعرضها في المكتبة للاستفادة منها .

وقد كانت دار الحكمة ، اكبر المراكز الثقافية في بغداد ، تعتبر مدرسة دينية خاصة ومرصدا فلكيا بالاضافة الى كونها من أوسع المكتبات العامة في الاسلام وقد سارت على منوالها مدن عديدة من الامبراطورية الاسلامية فأقرت وسائلها واتخذت حتى اسمها . ولم تهىء هذه المكتبة فرص التعليم والمعرفة وحسب ، بل قامت بانشاء دراسات اولية لعلوم الاوائل[١٥] . وقد أسس هذا المركز العلمي من قبل المنصور الا انه طور في عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣) الذى عرف بغزارة علمه وسعة تفكيره وتشجيعه المعتزلة . هذا وقد ضمت خزانة الحكمة مختلف العلوم المعروفة آنذاك بضمنها علوم الطب والجبر والكيمياء بالرغم من ان محتوياتها شملت بالدرجة الاولى كتب الفلسفة والفلك . ونحن لا نملك دليلاً على مقدار المبالغ التي صرفها المأمون في سبيل الحصول على مجموعات الكتب والمخطوطات وترجمة الاجنبى منها ، الا ان هناك رواية تذكر ان ثلاثة اخوة يعرفون ببني موسى كانوا ذوى علم وثقافة لا تقل وزنا من تلك التي يتصف بها المأمون ، وقد قاموا بمعاونة عدد من المترجمين في الخزانة مما كلفهم ذلك خمسمائة دينار شهريا[١٦] .

وكان صاحب الخزانة او المكتبى يختار من بين المسلمين المعروفين بالبحث والتأليف في زمانهم ، ومن بين المترجمين المشهورين أو على اقل تقدير من بين الوراقين الذين ذاع صيتهم . وكان سهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة مثلا ، مترجما معروفا ، اضافة الى كونه شاعرا وخطيبا عرف بفصاحته وحسن اسلوبه

---

(١٢) عواد ، ك . المصدر السابق . (ص ١٤-١٥).

(١٣) Ali, Sayed Ameer. **A Short History of Saracens.** London, Macmillan, 1934. 640 P. (P. 265).

(١٤) ابن النديم ، ابو الفرج ... المصدر السابق . ( ص ٣٤٣ ) .

(١٥) "Dar Al-Hikma", **Encyclopedia of Islam.** New ed. edited by J. Kramers, H. Gibb and Levi-Provencal. Vol. I. Leiden, E, Brill, 1954 (P. 126).

(١٦) Mackenson, R.S. **Four Great Libraries of Medievel Baghdad.** Library Quarterly, II (1932), 279 — 297) (P. 284)

واطلاعه الواسع على كتب عصره وكتاب زمانه[١٧] . وكان يدفع لصاحب الخزانة ومعاونيه الاموال الطائلة اما نقدا أو عينا لسد احتياجاتهم الضرورية . وافضل ما لدينا في هذا المجال ما ذكره ابن الفوطي خازن مكتبة المستنصرية عن اموال العاملين في هذا المركز العلمي المشهور الذى أسس عام ١٢٣٣ كمثال للمبالغ والجرايات التى كانت تخصص لخازن المكتبة ومعاونيه وهم : (١) القيم أو المكتبي ، وقد خصص له يوميا عشر أوقيات من الخبز وأربعا اخرى من اللحم مع عشرة دنانير نقدا شهريا عن كل شهر ، (٢) المشرف ، وقد خصص له يوميا خمس اوقيات من الخبز واثنان من اللحم مع ثلاثة دنانير شهريا ، (٣) المناول ، وقد خصص له اربع اوقيات من الخبز ووجبة غذاء كاملة مع دينارين شهريا . هذا بالاضافة الى عدد من النساخ والحراس والمراقبين . اما خازن مخطوطات المسجد فقد كان ايضا وراقا او نساخا للمخطوطات . اما المكتبة العامة فتضم عادة اثنين من الوراقين الذين يزاولون بالاضافة الى اعمالهم الرئيسة ، مهمة تجليد وتذهيب الكتب . وكان خازن المكتبة يقوم بادارة المكتبة من الفجر حتى الغسق . وبصورة عامة فان صاحب الخزانة او المكتبى العربى ، خلال القرون الوسطى ، كان قد احتل من دون شك مركزا مشرفا ، لذلك كان المكتبيون عادة من الشخصيات الهامة في المجتمع الذي عاصروه .

وتحتوي المكتبة بصورة عامة على ثلاث حجرات، الكبرى منها لحفظ وعرض المخطوطات وكذلك للمطالعة فيها ، واخرى لاعمال النسخ والتجليد بالاضافة الى خزن الكتب والمواد المكتبية الاخرى ، وثالثة تستعمل كمأوى لخازن المكتبة . وقد وصف المؤرخ المقدسى احدى المكتبات الاسلامية على النحو التالى : « وخزانة الكتب حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صنف الى وقته من انواع العلوم كلها الا وحصله فيها . وهى أزج طويل فى صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه وقد الصق الى جميع حيطان الازج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاث اذرع من الخشب المزروق عليها ابواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها اسامي الكتب لا يدخلها الا وجيه »[١٨] .

ومن جملة الكتاب البارزين في البصرة محمد بن بحر المعروف بالجاحظ (٧٧٩-٨٦٩) الذى كان أول من بدأ بدراسة علم الحيوان بشكل بسيط في كتابه الموسوم (الحيوان) . وقد عرف عنه انه امتلك مجموعة خاصة ضخمة ، وانه بالاضافة الى ذلك مطالع دائم ، فكان يكترى من حوانيت الكتب لمدة ليلة أو ليلتين ليطالع بعض الكتب ، ساهرا على ضوء القنديل الخافت . وقد قيل انه بينما كان يقرأ وهو في أواخر ايامه فأن اعمدة الكتب المتجمعة في حجرته سقطت عليه وعجلت بوفاته ، وقد مات وهو يناهز الثامنة والتسعين .

وقد وصل العديد من المكتبات والمجموعات الخاصة بالعلماء والادباء من الاتساع حجما كبيرا في القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر . ومما يذكر ان السلطان نوح بن منصور السامانى استدعى الصاحب بن عباد ليوليه وزارته فكان مما اعتذر به انه لا يستطيع حمل أمواله ، وان عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على اربعمائة جمل أو أكثر ، وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات . وان العالم البغدادى ابا بكر محمد البرقانى المحدث المشهور في القرن الحادى عشر جمع كتبا كثيرة ، وانه اذا اراد الانتقال احتاج الى ستين من الاعدال والى

---

(١٧) ابن النديم ، ابو الفرج ... المصدر السابق . ( ص ١٣٠ ) .

(١٨) المقدسي ، شمس الدين ابو عبدالله البشاري. احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . تحقيق ام . جي . دى كوجة . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ ، ٣٩٨ ص ( ص ٣٣٩ ) .

صندوقين ليحمل كتبه عند انتقاله[١٩] وقد امتلك ابن الطريف المتوفى سنة ١٠١١ خزانة تحوى على المخطوطات النادرة ذات التجليد الفاخر والخطوط المذهبة والهوامش المنقوشة ، وقد اعتبر كتبه ثمينة الى درجة انه لم يكن ليسمح باعارتها وانما كان يزهو بعرضها للزائرين وحسب • وهناك مكتبة خاصة رائعة في بغداد كانت مفتوحة للناس تعود الى الفتح بن خاقان وقام علي بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٢٧٥هـ بترتيبها وتصنيفها حتى قيل انه لم يكن هناك ما يجاريها نظرا لما حفلت به من صنوف الكتب والدفاتر التى عرفت بجمال خطها وروعة تجليدها[٢٠] • بالاضافة الى ان نزله كان مفتوحا لعامة الشعب الى جانب العلماء من البصرة والكوفة وكان يحمل دوما كتابا معه اما في كمه أو في جلبابه اينما حل وكان يقرأ حيثما يجد متسعا للوقت •

واكبر الظن ان فهرس المؤلف أول ما استعمل في المكتبات العربية العامة • وكان عبارة عن قائمة بالكتب ولم يكن ما يشير ان مداخل الفهرس قد رتب هجائيا ، وعندما يتسع حجم المجموعات كانت تبرز الحاجة الى تصنيف تلك المخطوطات بحسب مواضيعها العامة ، وأهم الموضوعات العلوم القرآنية والحديث والفلسفة وفقه اللغة والادب والشعر والرياضيات والتاريخ • وكان اسم المؤلف والعنوان يكتبان على ظهر الكتاب ، وكانت احيانا توضع قطعة من الورق ملصقة على الرف يكتب فيها اسماء الكتب لكل موضوع أو رف وما ينقصه من الكتب ايضا[٢١] • وبصورة عامة ، فان الفهرسة والتصنيف في المكتبات العربية ، كانت وسيلة يستفيد منها اغلب الظن الخازن او القيم اكثر من الجمهور نفسه اذ انها اعتمدت على تسجيل الكتب من اجل الحفاظ عليها ولم يكن في السجل اى تفاصيل عن محتويات المجموعات يعود ذلك اكبر الظن الى اتساع حجم تلك المجموعات • وكانت الكتب تعتبر ملكية ثمينة فكان على الخازن ان يرقمها ويعني بترتيبها • ولم يكن التأكيد في الفهرسة على محتويات الكتب كما كان الحال في مكتبات الاديرة في أوربا ولكن الاهتمام انحصر في كتابة عنوان المخطوط واسم مؤلفه •

وهناك مركز ثقافي آخر أسسه في بغداد بين ٩٩٢-٩٩٥ الوزير ابو نصر سابور بن اردشير ويشتمل على خزانة ضخمة ضمت أكثر من مائة الف مخطوطة مصنفة في فهرس جامع اهتم بجمعها اربعة من كبار علماء بغداد ، وكان عبدالسلام احد خازني مكتبة سابور صديقا للمعرى الذى ارسل له رسالة وبعض القصائد لا تزال محفوظة • وكان عبدالسلام هذا معروفا بدراساته اللغوية والتاريخية[٢٢] •

اما مدينة الموصل فقد عرف عنها في منتصف القرن العاشر انها حوت العديد من المكتبات منها مكتبة دار العلم اسسها العالم ابن حمدون في عام ٩٥٣ (٣٢٣هـ) واصبحت ملتقى الدارسين وكان الطلبة يتزودون فيها بالورق مجانا[٢٣] •

ان جميع المكتبات العامة والخاصة وتلك الملحقة بالجوامع كانت تعزز دوما بالهدايا الوفيرة والاوقاف الشخصية من الكتب ، اذ كان من عادة الخلفاء والامراء والنبلاء وأهل المعرفة ان يحبسوا مجموعات كتبهم في أواخر أيامهم على تلك المكتبات •

اما دكاكين الكتب التى انتشرت في أوائل العصر العباسى ، فقد كانت عبارة عن محلات تجارية وثقافية في نفس الوقت ، ويؤكد اليعقوبى ان في

---

(١٩) امين ، الدكتور حسين « **الحياة الثقافية في العصر البويهي** » • مجلة الاستاذ ( كلية التربية ـ جامعة بغداد ) عدد ١٦ ، ١٩٦٩/٩٦٨ •

(٢٠) الحموي ( الرومي ) ، ياقوت . **معجم الادباء او ارشادالاريب الى معرفة الاديب** تحقيق د.س. مارجليوث . القاهرة ، مطبعة هندية بالموسكي ، ١٩١٣ ( جـ ١٥ ص ١٤٤ ) .

(٢١) Pinto, O. **Loc. Cit.**, P. 60:

(٢٢) الحموى ، ياقوت . المصدر السابق . ص.٤٥

(٢٣) الحموى ، ياقوت . المصدر السابق جـ٢ (ص ٤٢٠) .

زمانه ( أواخر القرن التاسع ) تفاخرت العاصمة بغداد في عدد تجار الكتب المجتمعين في شارع واحد منها • اما باعة الكتب انفسهم فكانوا من النساخ والخطاطين أو رجال الادب الذين لم يستخدموا الدكاكين كمخازن أو ( ورش ) للكتب وحسب ، بل كمراكز للمناقشات حول الكتب والمخطوطات الجديدة ايضا[٢٤] •

وفجأة ذوى ذلك المجد الحضارى لبغداد مع معاهدها ومكتباتها النفيسة على أثر هجمات الغازي المغولي هولاكو وذلك في عام ١٢٥٨ وقد احرق جنوده المكتبات والكتب ورموا المخطوطات التى لم تأت النيران عليها في دجلة • ويخبرنا المؤرخون ان ماء دجلة قد تلون من أثر حبر المخطوطات لايام عديدة • وتدريجيا دخل العراق وغيره من البلاد العربية ومعها مراكز الحضارة في عهد مظلم بدأ بالقرن السادس عشر وانتهى في أوائل القرن الثامن عشر بعد ان اتصلت مصر بالحضارة الغربية ، وفي أواخر القرن التاسع عشر في العراق حين ادخل مدحت باشا الوالي التركى في بغداد أول مطبعة في تاريخ العراق •

وتدل احصائيات معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ان هناك ثلاثة ملايين مخطوط تم نقلها الى مكتبات تركيا وروسيا والمانيا وفرنسا وبريطانيا واخيرا الولايات المتحدة الامريكية •وهناك اكثر من خمسة عشر الف مخطوط عربي في الولايات المتحدة ، عشرة آلاف منها في مكتبة جامعة برنستن[٢٥] •

* * *

(٢٤) Hitti, Philip. **History of the Arabs; from the earliest times to the present.** 6th. ed. London, Macmillan, 1956. 822 P. (P. 413)

(٢٥) الناصري ، نهاد عبدالمجيد . **الخدمات المكتبية في الجمهورية العراقية** • بغداد مطبعة وزارة التربية ، ١٩٦١ ( ص ٣١ ) .